الدين والأخلاق والرغيف

علم الاجتماع الحديث والحضارة فى زمن الحرب

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعه

(١)

لما اندلعت ألسنة الحرب العالمية الأولى (أغسطس سنة ١٩١٤ — نوفمبر سنة١٩١٨) كانت أوربا وأمريكا وكثير من بلاد الشرق غارقة فى محيط المادية والالحاد ، فلم تكد تتوسط الحوادث وتدور الأفلاك دورتها الثانية حتى تنبهت العاطفة الدينية فى الأمم المحاربة خشية الهلاك ، وفى الأمم المحايدة خشية امتداد نيران الحرب إليها ، فكثرت الصلوات العامة فى المعابد والمياكل ونهض رجال الدين فى كل مكان ليتهزوا الفرصة التى كانوا يرقبونها وهى فرصة الاتجاه نحو الدين . وقد وصف هـذا الاتجاه على رءوس أقلام بعض الكتاب بأنه مظهر من مظاهر الضعف فى النفوس البشرية ، سببته نكبات الحرب وويلاتها ، كترمل النساء وتيتم الأطفال وانتشار الفقر وتشتت شمل الأسر ، وفقـد الثقة فى المستقبل وانهيار آمال كثير من الأمم والجماعات .

ولكن هذه الحركة نحو الدين ازدادت كلما توغلت الحرب فى صفوف الأمم ، وصحبتها حركة أخرى وهى الحركة الروحية ، فذكر كثير من الأحياء أنهم رأوا أرواحا لقتلى الحرب وتحدثوا إليها وتكهنت لهم ببعض أمور المستقبل ، وكتبت الصحف الكبرى فى انجلترا وفرنسا أن كثيرين من الضباط والجنود شهدوا ملائكة يحاربون فى صفوفهم ضد أعدائهم ويشدون أزرهم ووكدوا مشاهداتهم بإجماع الكثرة وأيدوا شهادتهم برؤية العيان ، حتى إنك لتدهش من إيمانهم بهـذه الواقعة التى كانت تعـد فى نظرهم من خوارق العادات ومعجزات الأنبياء .

وكتب المستشرق إدوارد براون خطابا مفتوحا إلى جريدة التيمس فى سنة ١٩١٨ يقول فيه : إن بعض أمم الشرق المتدينة تعتقد اعتقادا راسخا فى معونة الملائكة والأرواح الطاهرة للجيوش المؤمنة فى أحرج وقتها كما روى المسلمون عن واقعة بدر الشهيرة التى انتصر فيها النبى "محمد" بثلثمائة جندى من المهاجرين والأنصار على ثلاثة أضعافهم من مشركى قريش !
وتواترت عقيب ذلك كتب العلماء أمثال سير أوليفر لودج وسير كونان دويل عن "عالم

السر" والحياة الأخرى الخ ، ونشر كتاب صغير طبع بملايين النسخ بقلم الجاويش داوى Dowie زعم ناشره أنه من إملاء روح هذا الجندى البريطانى الذى سقط فى ميدان القتال على وسيط انجليزى معروف .

وانتشرت الفكرة الدينية فى فرنسا وهى من أعرق الأمم فى حرية الفكر والزندقة Atheisme فتأسس معهد الروحيات بإشراف الأستاذ Richet وانضم إليه فريق كبير من علماء الفلك وعلم النفس والطبيعيات والاجتماع وغيرهم وكان فى مقدمتهم كاميل فلا ماريون الفرنسى ولومبروزو الإيطالى ، وقد أجمع هؤلاء جميعا على خلود الروح ووجود العالم الآخر ، وبالجملة صحة ما جاءت به الأديان ، فلما انتهت الحرب ووضعت أوزارها وعادت الحياة أدراجها ووطد معظم المكلومين والمحرومين والمظلومين أنفسهم على الصبر على ما أصابهم هبطت تلك الحركة التى كان لليأس فى إيقاظها نصيب ؛ ولكن فريق العلماء والباحثين احتفظ بها وعمل على تغذيتها وتنميتها فاستمرت عشرين عاما إلى أن نفخ فى صور الحرب الراهنة ونهضت أمم للوقوف فى وجوه أمم أخرى وقد اختلفت جميعها مبدأ ومشربا ومنزعا ، وكان بعضها مفرقا فى إنكار الأديان المنزلة كالصين واليابان وروسيا ، عادت فكرة الدين فنبتت فى أذهان الأمم المتدينة أصلا وأخذت الصلوات العامة فى المعابد والمحافل كل تتوالى وعادت الأصوات تجأر بالدعوات والاستغاثات المتتالية .

ولكن أمم الشرق العربى لم يفتر علماؤها ومفكروها عن الدعوة إلى الدين لحظة ، لأن طغيان المادة على الحضارة الحديثة كاد يدك صروح الايمان فى قلوب الشباب . وهم يعتقدون أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم بغير العقيدة الدينية وقد أيدت الحوادث نظريتهم بما وقع من الانهيار فى فرنسا فى سنة ١٩٤٠ وهى الأمة التى رفعت أعلام المادية والاباحية والالحاد عالية وزعم بعض مفكريها أن الحياة تستقيم باتباع مكارم الأخلاق المتفق عليها بين البشر بدون حاجة إلى الوازع السماوى ، وأن الخضوع إلى الفضيلة حبا بها لا خوفا من عقاب ، ولا ارتقابا للثواب خير وأشرف وأسمى وأجدر بقدر الانسانية الرشيدة من الرهبة والرعب والخنوع التى تحتمها الأديان . وقد ظهر فى الوقت المناسب كتاب " المنبعان الحتميان للدين والأخلاق " تأليف أشهر فلاسفة فرنسا فى العصر الحديث "برجسون" وهو آخر كتبه المدركته المنية بعد نشره ببضع سنين وقد أثبت فيه بسائر الطرق العلمية والطبيعية والمنطقية اتحاد مصدر الدين والفضائل . فكان هذا الكتاب العظيم بقلم حكيم العصر أفضل رد على الذين زعموا أن الأخلاق الفاضلة تنشأ بغير معونة الدين وأن الانسان قادر بمحض مجهوده الفعلى على أن يؤسس بناء من الفضيلة يغنيه عن المعتقدات التى انطوت عليها الكتب المنزلة .

بيد أن الحال فى الشرق كانت على غير تلك الخطة ، فإن معظم الشباب المتعلم فى أوروبا عاد بالأفكار المادية التى كانت سائدة فى أواخر القرن التاسع عشر والتى أعلنت إفلاسها فى الحربين العالميتين ، ولتأخر علوم النفس والاجتماع فى الشرق تتقوى الأفكار الجديدة المنتزعة من التقنيد الأعمى والاكتفاء بقشور العلوم ، فلا ينتظر أن تجتث الإباحية والإلحاد والاستهتار والفساد من بلاد الشرق حين دخلت إليه بعد فترة قصيرة، بل لا بد أن تقتضى زمنا حتى يثبت ضعفها وعدم ملاءمتها ، وحتى تقنع العقول التى احتضنتها وتغذت بها أن أصحاب الأمر الأصلاء فيه قد نزعوا عنه وانفصلوا وارتدوا وسلكوا سبيلا أخرى ، ومثلهم فى ذلك مثل المريض بالعدوى أو المجاور للحريق . لا بد أن يعالج الأول وتطفأ النار فى دار الثانى . وكلا الأمرين يحتاج إلى وقت وجهود مضنية ، ولست من المتشائمين أو الحانقين على هذه الأحداث أو على الذين سببوها وجلبوها ، لأن العقل البشرى فى حاجة إلى التطلع والاقتباس والتطور . وليس الشرق العربى كالصين يعيش وراء سور من الصخر متين ، ولم تنقطع حركة تبادل الأفكار بين الشرق والغرب فلا بد من حدوث هذه الطوارئ التى يفرح لها العاقل لأنها بمثابة التطهير والتنوير .

وقد التجأ الإنسان فى كل أطوار حياته الى الدفاع عن معتقداته . وأهم المعتقدات الجديرة بالدفاع الدين وقد استوت جميع الأمم فى تلك الفكرة — فكرة الدفاع عن الدين — لأنها جزء من الثقافة الإنسانية ، فسواء أكانت الأمة غربية أم شرقية فهذه العاطفة الناشئة عن الغريزة البشرية قوية عندها جميعا . قوية فى الغرب (أوروبا وأمريكا) وقوية فى الشرق (الهند والصين واليابان) فسواء أكان العقل المصرى شرقى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء أم غربيا فى التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء . ومصر و إن بعدت عن الهند والصين واليابان فى تلك الخلال الآنفة الذكر (التصور والإدراك والفهم) فهى قريبة من سوريا وتركيا والعراق وفارس وأفغانستان والحجاز وشمال أفريقا أى العالم العربى كله . فحاجتنا إلى الدفاع عن الدين ، بجانب أنها غريزية وعاطفية ، مرتبطة كل الارتباط بتطور هذه الأمم . فكبار المفكرين فى مصر يدافعون عن المعتقد من ناحيتى الأدب والعلم حيال أدوار الانتقالات العقلية التى ما تزال تتحول وتتبدل وتتجدد تحت تأثير الكشوف العلمية الحديثة والتجاريب العلمية والحيوية والاجتماعية المتتالية .

وإذن تكون تلك البحوث الفياضة التى بدأت أثناء الحرب العالمية الأولى وازدهرت أثناء هذه الحرب قد اتجهت نحو تشجيع العلماء والمصلحين فى توجيه الشباب نحو الدين على طريقة منورة ، بعيدة عن الحيف والتنطع ، ملائمة لروح العصر الاجتماعى ومنافية كل المنافاة للتعصب . ونحن لا نضيف إلى تلك الحركة ، نهضة التصوف الحديث New Theosopliy التى

ظهرت فى الشرق عقب أعمال السيدة آنى بيزانت فى الهند ولويس ماسنيون فى فرنسا وادوارد براون وارنولد نيكولسون فى انجلترا وقد ألفوا كتبا كبرى تعد من أعظم مراجع العلم والأدب فى التصوف الشرقى عامة والإسلامى خاصة فليرجع إليها من يشاء .

(٢)

بين المعتقد الديني والدفاع عن الدين إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وتعلق الإنسان بالمثل الأعلى حتى يصير "الإنسان الكامل" الموعود خطوة واحدة، وهذه كلها أهم هدف للعلم الاجتماعى فى أنحاء العالم ولا سيما فى زمن الحرب الطاحنة وكلها فروع لأرومة الثقافة الإنسانية العليا فى الشرق والغرب فقد أدرك الغرب وبعض أمم الشرق أن بعث الثقافة من أهم العوامل التى ترتكز عليها النهضات الاجتماعية والحركات الإنسانية ، وأن الأمة التى تبغى مجدا عليها أن تخلق فى الأفراد روح الإيمان بالأخلاق الفاضلة وروح الإيمان بقابليتهم على الابتداع والابتكار وأن تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية، وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ومستقبلها وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم ومآثرهم فى ميادين الثقافة والإصلاح وما كان له من أثر فى تقدم الحضارة . ولا يتأتى هذا وذلك إلا بدرس الحاضر درسا عميقا صادقا . فإذا نظرنا حولنا فى عالمنا هذا نجد عالما صارخا صاخبا اندلعت فيه النيران من كل جانب ويقول أحدنا : "ليس لدى القدرة على فهم ما حولى أو إدراكه وتصوره ولا أستطيع بعجزى وارتيابى أن أجد مرتكزا لعقيدتى فى الأخلاق والفضائل بعد هذا الانهيار الذى أشاهده" والحق أن الفرد معذور إذا ارتفعت صرخته بهذه الشكوى وإن يكن عاجزا عن إدراك حقيقتها المتأصلة فى تطور الحياة العامة ولا سيما السياسة والاقتصاد وكلاهما إذا اختل توازنه صار بلاء على العائشين فى عصر الاختلال . فاذا نظر المصلح الاجتماعى الى ما يهول العالم ويزعزع كيانه المادى والمعنوى رأى بعين الخبير أن أصل البلاء ناشىء من غريزة البقاء وتطاول الحياة المادية ورغبة القوة وطغيانها جميعا على نواميس الطبيعة والفضيلة ، فغريزة البقاء وخروج الأشياء عن حدودها أحدثا التصادم بين الأمم وأفسدا النظم العليا التى كانت جديرة بكفالة الأخلاق الفاضلة وسعادة البشر .

ولما كان أساس الأخلاق التمييز بين الخير والشر ، فالمرجع الأخير فى سلوك الأفراد والجماعات التفريق بين هذين العنصرين للذين يتبعهما مبدءان مهمان وهما الحق والباطل ، ولا يضر الإنسانية شىء أكبر من اختلاط الخير بالشر والحق بالباطل حتى يعجز الناقد البصير عن التفريق بين كل مبدأ ونقيضه ، والعالم يجتاز فى هذه الفترة المظلمة تلك المفازة المهلكة ، مفازة التيه التى امتزج خلالها الخير بالشر والحق بالباطل والضلالة بالهدى ، وقد انشق العالم إلى فريقين يدعى كل منهما أنه على الحق، وكان هذا دأبه منذ الخليقة إلى الآن ، ولولا هذا الانشقاق ما قام النزاع . ولا يكفى أن تقول للناس عامة وللخصمين خاصة إن

الحق ظاهر والباطل ظاهر ، فانه لو ظهر لها وأجمعا عليه ما تنازعا ، بل إن كل فريق منهما يعتقد أنه على حق ،وهذا محال لأن الحق واحد لا يتعدد ، والخير واحد لا يتعدد ، والهدى واحد لا يتعدد ؛ وقد يكون هنالك حق نسبي وخير نسبي وهداية نسبية كما يوجد عدل نسبي وهو الذي تقسمه المحاكم الدنيوية بين الناس لتضع حدا للنزاع بينهم ؛ ولكن الحق المطلق والخير المطلق والعدل المطلق هي المقصودة بالذات بالأجل هذا بدأت دهشة الناس في الحرب العالمية الماضية لما رأوا أمما أوروبية تتقاتل وتتحد إحداها ودولة شرقية أو دولتين لتشد أزرها على أمة أوروبية أخرى. وقديما كان المسلمون يميلون إلى الروم وهم غربيون وينفرون من الفرس وهم شرقيون حتى نزلت في عصر النبي عليه الصلاة والسلام سورة باسم الروم وفيها بشرى لهم بالنصر :

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ . فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ . لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ .

فهذه الآيات الثلاث ناطقة بعطف الإسلام في نشأته على أمة تعايرهم في الجنس والدين وتبعد عنهم ألوف الفراسخ .

وإلى جانب هذا التناقض الظاهر نرى شرا أعظم وأخطر وهو صدمة الروح الإنساني وهو القوة الخالقة المبدعة بعد الله في الكون فتلطخ وجه الحضارة بالسوء كما تلطخت أيديها بالدماء فعمى الأفراد والجماعات عن نواميس الأخلاق الفاضلة الكفيلة بسعادة البشر وإن هؤلاء وأولئك ليقولون إنهم دائبون على هذا لغاية واحدة وهي سعادة الإنسانية . ولا ينتج في الواقع من الشر إلا الشر . ولا يتولد عن الأذى إلا الأذى فيتضخم ويطغى على الخير والعطف والمحبة ، وقديما قال الحكماء إن النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله ؛ ولكن الشر يقوى وينمو ويتضاعف تضاعف الجرائم المهلكة . وإن الجريمة تدعو الجريمة وغريزة الهلاك تنتشر من الجماعات إلى الأفراد فتصحب الحروب جرأة الجناة وتحلل الأخلاق واندفاع الغرائز السفلية وتسود المطامع ويستهين المجتمع بالروابط الإنسانية كالصداقة وحب الأسرة وصنع الخير وإيتاء البر لذوى القربى والغرباء وترفع الأثرة رأسها ويتيقظ حب الذات فيهدم في بضع سنين من بناء المكارم ما شادته الإنسانية في قرون وأجيال . وقد شاهد علماء الاجتماع هذا التدهور في الأخلاق رفيقا وزميلا للحروب وأثبتوا أن عصور المجازر والمظالم حافلة بجرائم الاعتداء على الأرواح والأعراض والأموال بين الأفراد ، لأن الانسان الميال إلى الاجرام يرحب بالفترات التي يضعف فيها الوازع الأدبي ويعتبرها ميدان مرح له وشمول سطوته ونفوذه ، وهو لا يخاف المنطق العقلي بل يحاذيه ويتقنيه .

إن رجل الأخلاق لا يقنع بأن ينجو بجلده وسط العالم الصاخب ولا يرضى أن يرقب عن بعد أو عن كثب إخوانه فى الانسانية يموتون جوعا و تخرب دورهم وتبدد أوصالهم وهو جالس ينظر و يسجل . لأن كل مايطغى على النواميس التى قبل أن يخضع لها رجل الأخلاق عليه أن يقاومه و يقومه حتى يعيد هذه النواميس إلى مكانة الاحترام التى كانت تحتلها لأن نواميس الأخلاق ليست قواعد الأدب الظاهر Etiquette التى تواطأ الناس على اتباعها فى المجتمع ، إنما نواميس الأخلاق القوانين الأساسية للحقائق العليا المطلقة أنجتها آلام الاختبار الطويل فى حياة البشر من ألوف السنين وانتزعتها بقوة من تجاريب الأجيال القاسية فتأسست على عقيدة واحدة وهى قدرة الإنسان على الازدهار فى ظل الحب والتنور .

(٣)

بق النظر الاقتصادى ورهبة الجوع ، فان العالم الآن لا يخشى شيئا أكثر من فقد قوته الضرورى الذى طغت عليه المطالب الأخرى ، وقد شهد العالم فى بعض الممالك الخصيبة شحا فى الطبيعة وجدبا فى الزرع وجفافا فى الضرع وضيقا فى سبل العيش ، حتى ان صاحب الدرهم والدينار لا يستطيع شراء الرغيف وحتى عجزت الطبقات جميعا عن تغذية الطفل والشيخ والعليل . كتب الأستاذ لارس موين Moen أن شرطيا بلجيكيا عهد إليه الإشراف على توزيع الخبز فى أوائل أيام الاحتلال وقضى يومين فى " دوريته " بغير طعام ولا راحة فلما رأى عربة الخبز مقبلة استوقفها ووثب عليها وخطف الرغفان و بدأ يأكل بشراهة نادرة وقد تمكن مصور من تسجيل هذا المنظر الأليم فى صورة شمسية وكان ذلك سببا فى مسئولية الشرطى وإن يكن معذورا ، وإذا جاعت الشعوب فلا أمان لها لا جندى يعصى أمر رئيسه وقائده ، والمرأة تفرط فى عرضها ، وصاحب المبدأ أو المذهب يتهاون فيه و يتساهل فى عاقبة الأمور، ويفضل الحاضر على المستقبل ، ويؤثر ضمان الحياة فى يومه على تمسكه بالفضيلة لغده ، وتكثر الخيانة ، ويظهر الجواسيس فى الأرض ، ويتجر الرجل بكل ما تصل إليه يده وعقله ، وقد شوهدت هذه المكاره فى أثينا وروما فى العصور القديمة وكانت سببا فى ثورات كبرى وشوهدت تلك المآسى فى فرنسا فى عهد الثورة وقبلها تحت حكم لويس السادس عشر ، وشهدنا هذا فى العواصم الإسلامية إبان الحضارة الكبرى فى بغداد ودمشق ومصر .

وقد قيل إن الجائع لا يثور، وهذا صحيح بمعنى أنه لا يقوم بثورة منظمة ولكنه يهيج يوما أو بعض يوم فيحدث التخريب وتعم الفوضى ويشعل نيران الأضغان بين عناصر الأمة وفى أمثال الانجليز المأثورة الجائع غضبان .A hungry man is angry وفى أمثال

اليابان من نصائح الأم لبنتها "لاتجيبي زوجك فإن المخمصة فراق" وفي كلام عبدالله ابن الارقم "عجبت للرجل لا يجد قوتا لعياله فلا يخرج على الناس بسيفه" وكان رسول الله صلى عليه وسلم يعنى عناية خاصة بأهل الصفة وهم أفقر فقراء المهاجرين فضافهم في مسجده وألزمهم جوار بيته وكان لا يتقدم أحد بدعوته الى طعام إلا و يصحبهم، و إلا فالاعتذار عن الدعوة. وقال الاحنف "اتقوا غضبة الجائع حتى يطعم و يشبع" وفي أمثال الميداني " لا رأى لحاقن ولا لجائع " . وكان عمر بن الخطاب فاروق الإسلام وأعدل حكام الارض قاطبة يطوف شوارع المدينة ليلا و يتفقد فقراءها خاصة فلما عثر ليلة على امرأة تخدع ابناءها من الجوع وتوهمهم بأنها تطبخ لهم طعاما على قدر ملا ن بالماء الساخن حتى يناموا حمل لها الدقيق والسمن والعسل على كتفه وعاد اليها وعاونها في إعداد الثريد وأيقظهم فأكلوا ولم يغادرهم حتى شبعوا وناموا ، وكانت خطته ألا يبيت مسلم من رعيته على الطوى ، لأن واجب الحاكم الأول ألا تخلو أحشاء الرعية مما يقوم أودها . وكان هم الرومان في حكم دولتهم أن يحملوا القمح الى رومه و يوزعوه على الفقراء وقامت في عاصمتهم ثورات كثيرة بسبب الجوع وحرصوا على ملك مصر لأنها كانت مخزن غلالهم وكانت أهم قوانين السناتو الروماني (مجلس الشيوخ) مايسمونه قوانين القمح . وفي انجلترا شغل الساسة في عهد الاحرار الأول (الثلث الاخير من عهد الملكة فيكتوريا بقوانين القمح Corn law واصلاح قانون الانتخاب فتضاءلوا إشباع البطون على إصلاح البرلمان . وأصل الثورة الايرلندية ثورة على الجوع فقد خلت الحقول من زرع القمح والشعير والبطاطس فهزعت الأمة بقيادة أوكونيل اولا و بارنيل ثانيا ودى فاليرا أخيرا حتى نالت استقلالها وكان سبب ثورة المانيا الداخلية في سنة ١٩١٨ الجوع وموت الأطفال فسقطت الحكومة وفر الامبراطور وانسحبت الجيوش الجرارة تحت إمرة هندنبورج

هذه موعظة التاريخ في الدين والاخلاق والاقتصاد شرحناها بإيجاز لمن ألقى السمع وهو شهيد .

محمد لطفي جمعه